

## ابن المقفع

بقلم عطا حسين

لم يكن للعرب عهد بالكتب و الكتابة الفنية في العصر الجاهلي ، فلما جاء الاسلام و تعقدت حياتهم السياسيه و الاجتماعيه نوعا ما أخذوا يكتبون كثيرا و لكن لم تكن في كتابتهم محاوله فنيه أو مواطن جمال اذ كان حسبهم أن تؤدي أغراضهم السياسه من غير تحبير أو تجويد لذلك كانت كتاباتهم ساذجه بسيطه .

و حين نجح المسلمون في سياسه التوسع و نجحوا في اقامه الامبراطوريه الاسلاميه واسعه الارزاء نشأت الحاجه الى انشاء الدواوين المختلفه لغايه اداريه ، فاتخذوا هذا النظام - نظام الدواوين - من الفرس و غيرهم ، و كانت تقوم على هذه الدواوين المختلفه طائفه من الموظفين الاجانب ، سميت باسم كتاب الدواوين . ففي العراق و فارس كانت الدواوين تكتب باللغه الفارسيه و في الشام و مصر باللغه اليونانيه حتى جاء عصر عبد الملك بن مروان و نقل بعض هذه الدواوين الى اللغه العرييه . و تم تعريبها في عصر هشام بن عبد الملك .

و ما من ريب في أن الكتابة ارتقت على أيدي هذه الطائفه - طائفه الكتاب - ان كانوا يحترفون مهنة الكتابة ، و كانوا لا يستطيعون أن يلوا هذا العمل الا اذا أظهروا براعتهم و مهارتهم في الكتابة .

هذه الطبقه من الكتاب أتاحت للكتابة الفنيه أن تظهر و تنمو وترتقى

الى درجة من الكمال عند عبدالحميد و سهل بن هرون و ابن المقفع و غيرهم .

### ابن المقفع : أصله وحياته

عبدالله بن المقفع فارسي الأصل ، و كان أبوه "و أذيويه" ، يعمل للحجاج في ديوان الخراج ، فاحتج ما له فضربه حتى تقفعت يده و من ثم لقب ابنه عبدالله بابن المقفع ، و قدرباه أبوه على دين المجوسية و سماه "روزبه" . و يبدو أن أباه اهتم بتأديبه و تهذيبه كما عنى بتعليمه العربية و ساعده على ذلك أن ولاء هما كان في آل الاهتم و هم مشهورون بالفصاحة من قديم ، و لم يمض زمن طويل حتى برزت بلاغة ابن المقفع ، فكتب لعمر ابن هبيرة دواوينه على كرمان ، ثم كتب من بعده لابنه يزيد و كان واليا من قبل مروان بن محمد كما كتب لابنه الآخر داؤد ، و لما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن علي عم المنصور ، و على يديه أسلم و تسمى باسم عبدالله و اكتنى بأبي محمد ، و استمر يعمل في خدمته عيسى حتى قتل سفيان بن معاوية و الى البصرة من قبل المنصور ،

### اختلافات في سبب قتله

اختلف المؤرخون في سبب قتله ، فهل قتل لزندقه فيه أو قتل لسبب آخر ؟ أما الجهشيارى فيؤكد أن السبب في قتله ما كان من تشدده في كتابه ، الامان ، الذي كتبه لعبد الله بن علي عم المنصور ، فقد ذهب فيه الى أن المنصور ان أخل بشرط من شروط هذا الامان كانت نساؤه طوالق و كان الناس في حل من بيعته ، و هذا مما أغضب المنصور ، فقال : "أما أحد يكفينيه" ، و تصادف أن سفيان ابن معاوية و الى البصرة

كان يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة فاستغل الفرصة، فطلبه، و لما قدم عليه، أمر بتنوير فسجر، ثم أخذ يقطعه عضوا عضوا ويرسى به فى التنور (١) و يؤيد الدكتور شوقى ضيف هذا الرأى فى سبب قتله و يقول :  
 ” و يظهر هذا هو السبب الصحيح فى قتل ابن المقفع “ (٢).  
 والجاحظ أيضا يرجح هذا الرأى ان يقول فى بعض رسائله . . انه أغرى عبدالله بن على بالمنصور ففطن له و قتل (٣).

و يرى الدكتور طه حسين أن سبب قتل ابن المقفع لم يكن زندقته و لا تشدده فى ” الامان “ الذى كتبه لعبد الله بن على ، بل كان رسالته التى وضعها موجهة الى المنصور و هى توشك أن تكون برنامج ثورة (٤).

و على كل حال فقد كان ابن المقفع مشهورا بزندقته ، شهدت بها الكثرة و أيدتها نصوص مختلفة و مع ذلك فقد كانت له نواح أخلاقية سمحة اذ كان سرىا سخيا يطعم الطعام و يتسع على كل من احتاج اليه (٥) و كان يقول : ” ذل نفسك بالصبر على الجار السوء و العشير السوء و المجلس السوء “ (٦) و دعاه عيسى بن على للغداء فقال له : ” أعز الله الامير لست يوسى للكرام أكىلا “ فقال و لم ؟ قال لانى مزكوم و

(١) الوزراء و الكتاب ص ١٠٢ .

(٢) الفن و مذاهبه فى النثر العربى ص ٤٧ .

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٧ .

(٤) من حديث الشعر و النثر ص ٤٧ .

(٥) الوزراء و الكتاب ص ١٠٩ .

(٦) أمالى المرتضى ج ١ ص ٩٥ .

الزكمة" قبيحه" الجوار مانعة" من عشرة الاحرار(١) و ان في هذا ما يدل على حسن ذوقه و دقه" طبعه.

### آثاره

أهميه" ابن المقفع في الواقع ترجع الى أنه كان مترجما لا لأنه كان كاتباً من كتاب الدواوين ، اذ حاول أن ينقل الى اللغة العربية خير ما عرفه في لغته الفارسيه" سواء أكان فارسيا خالصا أم هنديا أم يونانيا ، و أهم ما ترجمه من الكتب الفارسيه" ، كتاب "خدای نامه" ، في سير ملوك العجم ، و كتاب "آيين نامه" ، في آداب الفرس و عاداتهم و كان هذان الكتابان معروفين في البلاط الساساني . و المقصود من ترجمتها أن يطلع العباسيون على آداب هذا البلاط و تقاليده ، و لغته أراد ذلك بترجمه" كتاب التاج في سيرة أنوشروان ، و قد ترجم أيضا من الكتب الفارسيه" ، كتاب مزدك . أما الكتب اليونانيه" التي كانت معروفه" في لغته فترجم منها لارسطو المقولات و القياس و الجدل (هذه مسأله" مشكوك فيها ، انظر رأى الدكتور كراوى في كتاب "من تاريخ الالحاد في الاسلام" ، ترجمه" الدكتور عبدالرحمن بدوى) و بجانب ذلك ترجم قصص كليله" و دمنه" و هو قصص يرجع الى أصول هنديه" ، و قد عثر الأستاذ هرتل ( Hertel ) على أحد أصول هذا القصص و هو كتاب (بنج تنترا) (٢) الهندي كما عثر غيره على أصل آخر و هو كتاب "هتو پادشا" . (٣) و

(١) أمالى المرتضى ج ١ ص ٩٥ .

(٢) بنج تنترا كلمه" سنسكريتيه" ، بنج معناها خمسه" و تنترا معناها مقالته فكله" بنج تنترا معناها المقالات الخمس .

(٣) هتو پادشاه أصلها هت أؤيديش و معناها النصائح الحميدة

وجد الباحثون في المهابهارتا بعض أصول منه .  
 و لابن المقفع بجانب ذلك رسائل أخرى أشهرها رسالة الصحابه- و  
 الادب الكبير. كتاب الادب الكبير غير كتاب اليتيمه- (انظر كتاب  
 الدكتور عبد اللطيف حمزة عن "ابن المقفع") هذه ليست رسائل و انما  
 هي كتب ، و الادب الصغير، أما رسالة الصحابه- ففي حاشيه- الملوك و  
 في سياستهم العامه- و الخاصه- و هي موجوده في كتاب المنظوم و المنشور  
 . لابن طيفور و كذلك اليتيمه- موجود منها بعض فصول في كتاب ابن  
 طيفور .

الادب الكبير و الصغير : كلمه- الكبير و الصغير وصف للكتاب فليس  
 الصغير و الكبير و صفيين للادب و انما أراد ابن المقفع بالادب هنا معنى  
 تهذيب النفس و الخلق .

و هناك مسأله-، و هي هل هما مترجمان أو مؤلفان أو خليطان من  
 تأليفه و ترجماته ؟ أما هو فصرح في مقدمته للادب الصغير بقوله : قد  
 وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا فيها عون على عمارة  
 القلوب و صقالها و تجليه- ابصارها و احياء للتفكير و اقامه- للتدبير و دليل  
 على محامد الامور و مكارم الاخلاق (١) . و هذه العبارة تدل على أن  
 الكتاب ليس من صنعه ، و قال في الادب الكبير : انا لم نجدهم - أي  
 الاقدسين- غادروا شيئا يجد و اصف بليغ في صفة- له مقالا لم يسبقوه اليه،  
 لا في تعظيم الله عزوجل و ترغيب فيما عنده و لا في تصغير للدنيا و  
 تزهد فيها و لا في صنوف العلم و أقسامها (٢) . هذا كله مما يدل على

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٠٩ .

أن الكتائبين ليسا من تأليفه ، فهما اما مترجمان و اما فيهما ترجمه" كثيرة .

الادب الصغير : عبارة عن كلمات حكيمة في الاخلاق تحلل النفس و الخلق تحليلا دقيقا ، فيه جمل موجزة أشبه بالأمثال و هي خطرات نتيجة تجارب و تأملات قد صبغت في ايجاز مثل " أربعة أشياء لا يستقل منها القليل : النار ، و المرض ، و العدو ، و الدين " و نلاحظ في الادب الصغير أن ليس في أغلب الاحيان ارتباط بين حكمه ، فانا نرى كلمة في محاسبة النفس و بجانبها كلمة في الصديق ثم كلمة في معاملة الناس حسب طبقاتهم و هكذا . . .

أما الادب الكبير فكلمات كذلك و لكنها في مجموعها أطول ، ألقت الكلمات المتعلقة في موضوع واحد تقريبا ، و الكلام يدور حول موضوعين : أولهما حول السلطان و الولاة و من يتصل بهم ، و ثانيهما الصداقة و الصديق . و قد كان يرى في الاصدقاء عماد الحياة و مرآة النفس و وضع أشد شروط في اختيار الصديق اذ يقول " لان ذا الرأي لا يدخل أحدا من نفسه هذا المدخل الا بعد الاختبار و السبر و الثقة لصديق النصيحة و وقاء العقل .

و في الكتائبين أثر كبير من الثقافة الفارسية ، ففيها حكم كثيرة من حكم الفرس و فيهما بعض نظم الساسانيين في الحكم ، و كثيرا ما يقول : " احفظ قول الحكيم ، و قالت الحكماء " و هو يقصد حكماء الفرس .

و يرى بعض الباحثين أن هناك أثراً يونانيا في حكم الأدبين و هذا صحيح الى حد ما و لكن أغلب استمداد ابن المقفع في كتبه من الثقافة الفارسية .

## كليه و دمنه

يقول ابن المقفع: انه نقل الكتاب من الهندية الى الفهلوية أيام كسرى أنوشروان، و يرى الدكتور يوسف خليف إن ابن المقفع لم ينقل الكتاب من الهندية إلى الفهلوية و انما نقله من الفهلوية الى العربية و يقول بعض المؤرخين ان هناك فصولا بأكملها من زيادات ابن المقفع، و هي باب "غرض الكتاب" و باب "الفحص عن أمر دمنه" و باب "الناسك و الضيف" و باب "البطه" و مالك الحزين".

و قد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته الاصلاح الاجتماعى فانه يتعرض للنصح بعدم الاصغاء الى الحاسد و النمام، و بين أن هناك جزاء طبيعيا، فعاقبه "الخير خير"، و عاقبه "الشر شر"، و ينصح بأخذ الحذر من العدو و الاعتماد على الصداقه... الخ. و يظهر أن ابن المقفع تعمق فى دراسه الحياة الاجتماعيه. و هذا مما أداه الى استنكار كثير من الامور و يرى أن معظمها يرجع الى حكام عصره و يرى ان الحرية السياسيه غير متوافرة فى عصره فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفه و ولاته نقدا صريحا.

و تدل المقارنه بين ما عثر عليه من الفصول الهنديه و الترجمة السريانيه القديمه التى ترجمت من اللغة الفهلويه و غيرها، على أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمه حرفيه بل حور كثيرا فى جمله و معانيه و ترتيبه حتى يتفق و الذوق العربى الاسلامى و ذوق المتأدين فى عصره و ان كنا نلاحظ أن هناك عبارات ترجمت ترجمه حرفيه.

و قد كان لكتاب كليه و دمنه أثر كبير فى الادب العربى و عنى الناس به عنايه كبيره و حذوا حذوه، من ذلك أن كثيرين نظموه، نعرف

منهم أبا نأ اللأقأ و لكن لم يصل الينا من نظمه الا القليل ، ثم نظمه ابن الهباريه فى كتابه ” نتائج الفطنه “ ، و يذكر ابن الهباريه أنها خير من ترجمه أبان ، و له نظم ثالث اسمه ” در الحكم فى أسئال الهنود و العجم “ ، أكمله عبد المؤمن بن حسن الصاغانى .

و هذا حدوه كتاب كشيرون ، فاين الهباريه ألف على منواله كتاب الصادح و الباغم ، و كذلك ألف على منواله كتاب ” سلوان المطاع فى عدوان الطباع “ ، لاین أبى عبد الله محمد بن قاسم .

و يذكر ” كشف الظنون “ ، أن أبا العلاء المعرى ألف كتابا اسمه ” القائف “ ، على مثال كليله و دسنه و لم يتم ، و أن له ” منار التألف “ ، يتضمن تفسيره ، و فى رسائل ” اخوان الصفاء “ ، رساله فى مناظره بين الحيوان و الانسان لا تخلو من لون من كليله و دسنه بل يظن ” جولد زيهير “ ، أن اسم ” اخوان الصفاء “ ، مقتبس من كليله و دسنه ، اذ ورد الاسم فى أول فصل ” الحمامه المطرفه “ ، .

و على كل ، فقد أدخل هذا الكتاب على الادب العربى القصص على أسننه الحيوان و كان لهذا الكتاب أثر من ناحيه تفصيل القصص تفصيلا طويلا و وضع الحكم و الامثال و العظه على أسننه الحيوانات ، و قد تبينت الحاجه الشديده الى هذا النوع من الادب فى عصور الاستبداد لا يستطيع الناقد فيها أن ينقد أعمال الحكام ، فعم هذا النوع من القول و القصص .

### تأثير الترجمة فى كتابته

كل من يعرض لا بن المقفع يتعرض له شىء واضح تمام الوضوح و هو تعثر و ارتباك فى جميع كتاباته اذ يرى فيها خلافا فى صله العبارات و



بنائها، كما يرى فيها خلافاً في ضمائرها و بعض صيغها، و هو خلل تقود إليه غالباً الترجمة الحرفية و يظهر أن ابن المقفع كان يأخذ نفسه بحرفية الترجمة.

فقد لاحظ الدكتور عبد الوهاب عزام في مقدمته لنص كليله و دمنه أثر اللغة الفارسية و استدل بأمثله منها :

(الف) ما جاء في النص الانف بالصحيفة السادسة من قول ابن المقفع : ” غلب على صاحب البيت النعاس و حمله النوم ،، فقد لاحظ أن تعبير ” حمله النوم “، ترجمة لفظية للجمله الفارسية ” خواب أو رابرد “،

(ب) و منها ما جاء في الصحيفة الثلاثين : ” و عرفت أنى ان أواقفه على ما لا أعلم أكن كالمصدق المخدوع الذى زعم أن جماعه من اللصوص ذهبوا الى بيت رجل من الاغنياء ،، فقد لاحظ الدكتور عزام أن ” الذى فى الجمله “ ليست ملائمة للسياق اذ ليس بعدها عائد على الموصول و يظهر أن ابن المقفع استخدم الذى فى العربية استخدام ” كه “، التى تقابلها فى الفارسية و هى لا تحتاج الى عائد .

(ج) و من ذلك أيضاً قول ابن المقفع فى الصحيفة (١٠٤) ” و اما من دونه فقد تجرى أسورهم فنونا يغلب على أكثر ذلك الخطاء ،، فلاحظ الدكتور عزام أن ابن المقفع استعمل ” ذلك “، مكان الضمير .

و يقول فى الادب الصغير : ” يبلغ الدرہ مبلغ الفضل فى كل شىء من أمر الدنيا و الآخرة حين يؤثر بمحبته فلا يكون شىء أمر ولا أحلى عنده منه ،، فقد أعاد الضمير فى كلمه ” منه “، الى الايثار المفهوم من الكلام ، و واضح أن ذلك يؤدى الى الغموض فى التعبير ، وهو الى ذلك كان

يكثر من الضمير المنفصل كقوله في الادب الصغير: "من جعل الرأي دينا فقد صار شارعا و من كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له"، فان الضمير المنفصل هو لا ضرورة له .

على كل حال ، فقد كان ابن المقفع مشغوبا بالترجمة الحرفية و هو شغف جعل لغته في كتبه تتعثر في كثير من جوانبها على أنه لا يقل من شأن ابن المقفع في التاريخ النثر العربي بل ان ذلك ليجعلنا نلتفت الى أن الرجل كان مأخوذا بالدقة و الامانة فيما يترجم وهي دقة ما جرت عليه بعض صعوبات و بعض تعثرات و ارتباكات ولكن ذلك كله لا يخرج من دائرة البلغاء و النصحاء فهو فصيح بليغ بلا منازع و يكفي أن صاحب الفهرست عده من البلغاء العشرة الاول الذين يقومون على رأس أدباء العصر العباسي و يقول الجاحظ في بيانه ، لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئل ما البلاغة ؟ قال البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت و منها ما يكون في الاستماع و منها ما يكون في الاشارة و منها ما يكون في الحديث و منها ما يكون في الاحتجاج و منها ما يكون جوابا و منها ما يكون ابتداء و منها ما يكون شعرا و منها ما يكون سجعا و خطبا و منها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها و الاشارة الى المعنى ، و الايجاز هو البلاغة" (١) .

والحق أن ابن المقفع عنى بصناعته أساليبه رغم ما يبدو عليها أحيانا من انحرافات جرته اليها دقته البالغة ، و لعل هذه الدقة ، نفسها هي

(١) الفن و مذاهبه في النثر العربي ص ٥٠ .

التي جعلته يعنى باختيار ألفاظه و صقلها و تنقيحها ، و قد كان ينفر نفورا شديدا من الاغراب فى اللفظ و التوعر فيه ، و من قوله فى ذلك اياك و التتبع لحواشى الكلام طمعا فى نيل البلاغه" فان ذلك هو العى الاكبر، و فى هذه الجوانب من اختيار اللفظ و صقله و الدقه" فيه تستقر صناعه" ابن المقفع ، على أننا نلاحظ من طرف آخر أن هذه الصناعات" تكاد تخلو حلوا تاما من مبالغات الفن سواء ارتبطت هذه المبالغات بجمال الصوت أم بجمال التصوير ، فليس فى أساليبه عنايه" بالحيله" الدقيقه" الا ما جاء فى كليله" و دمنه" ، و كذلك ليس فى أساليبه عنايه" بالسجع ، ذلك لانه لا يفكر فى الجمال المادى للاساليب ، انما يفكر فى الجمال المعنوى ، و قد بعث فيه عمله فى الترجمة" ايمانا بأن الافكار هى كل شىء فى الاسلوب ، فعنى بأفكاره أكثر مما عنى بألفاظه .

على أن ذلك لا يخرج ابن المقفع من دائرة الصانعين فقد كان صناعا ممتازا ، و غايه" ما فى الامر أنه كان يركز صناعته فى معانيه و أفكاره و كان يعانى بسبب ذلك تعباً و مشقه" فى بناء عباراته و خاصه" فى ضمايرها و للعل هذه العنايه" و المشقه" جعلت الدكتور طه حسين يقول "انه (ابن المقفع) كان مستشرفا كغيره من المستشرقين ، يحسن اللغة العربيه" ، فهما و ربما أعياه الاداء فيها ، ، .